الازدواجية اللغوية لدى الطفل: مقاربة سيكومعرفية

الغالي أحرشاو

aharchaou.rhali@gmail.com

قسم علم النفس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب

ملخص

يتحدد الهدف الرئيسي لهذا المقال في تجسيد مظاهر نمو وعي الأطفال بالازدواجية اللغوية من خلال مقاربة طبيعة تمثلاتهم وأحكامهم على مقومات هذه الظاهرة، وملامح كينونتها وفائدتها. فالنتائج المستخلصة من الدراسة الميدانية التي شملت عينة مكونة من 96 طفل مغربي، تتراوح أعمارهم ما بين 4 و11 سنة، كلهم ينتمون إلى شرائح اجتماعية متوسطة، ويتابعون دراستهم بالتعليمين الأولي والأساسي، تكشف عن الخلاصات التالية: 1) الموقف شبه الموحد لهؤلاء، وبغض النظر عن صغر أو كبر سنهم، تجاه كينونة الازدواجية اللغوية وفائدتها؛ 2) إن ممارسة هذه الازدواجية في المغرب لا تبدأ بالضرورة في المدرسة على شكل تعلم منظم للغة ثانية، بل تتمظهر قبل ذلك في صورة أنشطة وتجارب يواجهها الطفل ويتعامل معها على مستوى التأمل والحكم؛ 3) يمثل وعي الطفل المبكر بكثير من تلك الأنشطة والتجارب الدالة على كينونة الازدواجية اللغوية وفائدتها، الدليل الواضح على الدور الإيجابي لهذه الأخيرة في تكوُّن هذا الوعي الذي يساهم بدوره في إغنائها وتنميتها؛ 4) يتحول نمو وعي هؤلاء بالازدواجية اللغوية من الاعتراف العفوي الساذج لدى صغارهم سنا (4-7 سنوات)، إلى الاعتراف المتذبذب المحكوم بنوع من التراجع لدى متوسطيهم سنا (8-9 سنوات)، إلى الإقرار شبه الكامل بوجود تلك الظاهرة وفوائدها لدى كبارهم سنا (10-11 سنة).

الكلمات المفتاحية: الازدواجية اللغوية؛ المقاربة السيكومعرفية؛ نمو الوعي.

Bilingualism in children: A psychocognitive approach

El Rhali Aharchaou

aharchaou.rhali@gmail.com

Department of Psychology, Faculty of Letters and Human Sciences Dhar Mahraz, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fes- Morocco

Abstract

The main goal of this article is to determine the aspects of development of children's awareness of bilingualism by approaching the nature of their representations and judgments on the components of this phenomenon, and the characteristics of its existence and utility. The results of the field study, which included a sample of 96 Moroccan children, aged between 4 and 11, all belonging to middle social class, and pursuing their elementary and primary education, reveal the following conclusions: 1) an almost unified attitude of the subjects to the essence of bilingualism regardless of their age; 2) the practice of this bilingualism does not necessarily start at school as an acquisition of a foreign language, but it appears prior to that in the form of early activities and experiences that the child faced and manipulated at the level of reflection and judgement; 3) the child early awareness of many of these activities and experiences related to the essence of this bilingualism and its utility is the clear evidence of the positive role of these activities and awareness in the formation of this awareness that contributes in turn to its fostering and development; 4) the development of bilingualism awareness ranges between naïve and spontaneous recognition among children (4 to 7), to the unstable recognition doomed to recess among those of 8 to 9 and an almost total acceptance of the phenomenon and its usefulness among the older ones (10 to 11).

Keywords: bilingualism; psychocognitive approach; development of awarness.

مقدمة

نسعى في هذا المقال الذي يمثل مضمونه عن مظاهر الوعي بالازدواجية اللغوية لدى الطفل، ملخصا وافيا للدراسة الميدانية المطولة التي أنجزناها سنة 2007 لفائدة الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، إلى استنطاق طبيعة العلاقة المحتملة بين هذه الازدواجية كواقع يعيشه الأطفال المغاربة بشتى لهجاته ولغاته (عامية - أمازيغية - فصحى - فرنسية - إسبانية - أنجليزية)، وبين مظاهر الوعي بكينونتها وفائدتها. فغايتنا تكمن في تجسيد مظاهر نمو وعي هؤلاء الأطفال بهذه الازدواجية من خلال مقاربة واستكشاف طبيعة تمثلاتهم وأحكامهم حول مقومات وجودها وملامح أهميتها، وذلك من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

كيف يصل الطفل إلى إقامة علاقة عضوية بين اللغة كنظام نمتلكه جميعا والشخص الذي يستعمل هذا النظام؟ هل صحيح أن الازدواجية اللغوية تساعد الطفل على وعي مبكر باللغة، وعلى تحقيق تقدم في هذا النطاق إذا ما قورن بنظيره أحادي اللغة؟ إلى أي حد يصح اتخاذ كفاءة الوعي اللغوي المتطورة كنتيجة مباشرة للازدواجية اللغوية أو تعددها؟

1 مقدمات نظرية

أ) أكيد أن موضوع الوعي بالازدواجية اللغوية أصبح يشكل مبحثا أساسيا في علوم النفس والاجتماع والتربية واللسانيات وذلك لاعتبارات نظرية وتطبيقية أهمها (أحرشاو، 2007):

- ظهور السيكولوجيا المعرفية في أوائل ستينيات القرن 20 وتحيين دراسة السيرورات الذهنية الداخلية بعدما كانت مغيبة في السيكولوجيات السابقة.
- الاهتمام بدراسة نشاط الطفل وملاحظة سلوكه تجاه اللغة عامة والازدواجية اللغوية والقراءة والكتابة والحساب خاصة.
- الإقرار بأهمية خدمة الحقل التربوي باعتماد بيداغوجيا المعرفية الواعية التي تعلم الطفل كيف يتعلم اللغة ويفكر في مكوناتها ويعقل فوائدها.

ب) الواضح أن مسألة العلاقة بين الوعي اللساني وسيرورة اكتساب اللغة، بما في ذلك الازدواجية اللغوية، قد حظيت بأعمال كثيرة تحكمها ثلاث أطروحات نظرية (أحرشاو، 2007):

الأولى ظاهراتية تقول بالاختلاف الكيفي بين السيرورات الواعية واللاواعية، وتؤطرها بالخصوص أعمال فودور Fodor (1983) عن القوالب والسيرورات المركزية وأعمال بيروشي Perruchet (1989) عن الأليَلاتِ المعرفية والمراقبة.

الثانية بيظاهراتية تعتبر الوعي كظاهرة ثانوية مصاحبة تتولد عن النظام المعرفي دون أن تحظى بأي دور تأثيري في هذا الأخير، وتحكمها مسلمة تسَاوي المعارف الواعية واللاواعية واندماجها في سيرورة موحدة.

أطروحة ثالثة بلورتها السكولوجيا المعرفية المعاصرة يحكمها منظور تفاعلي، وتسلم بمرجعية السيرورات الذهنية في بزوغ الوعي ودوره الحاسم في الاشتغال المعرفي وفي عمل هذه السيرورات نفسها. وتؤكد أعمال ميلو Melot (1990) وفايول Fayol ومونتيي Montey (1994) حول استراتيجيات الوعي المعرفي في التعلم وحل المشكلات بشكل واضح على هذا الدور من خلال إبراز وظيفة الوعي في انتقاء السيرورات الواعية وتخطيطها وتوجيهها.

ج) على عكس الموقف الرافض للازدواجية اللغوية بسبب آثارها السلبية على نمو الطفل المعرفي ونجاحه الدراسي، فقد راهنت الأعمال الحديثة على بيان مزاياها الإيجابية، الفكرية والمدرسية والاجتماعية. وتكمن أسباب هذا التغير في الموقف في المستجدات التالية (أحرشاو، 2007):

- التعريف الجيد الذي أصبح يناط بمفهوم الازدواجية اللغوية ودرجاته وأنواعه.
- الإقرار بأهمية الازدواجية اللغوية في التفعيل المبكر للوعي اللساني عند الطفل، بحيث ثبت من أبحاث كثيرة (Léopold، 1949؛ Bialystok، 1986؛ Ianco-worall، 1972؛ Tunmer و Mehell، 1984؛ Vygotsky، 1962؛ أحرشاو، 1999؛ أحرشاو و الزاهير، 2000؛ Ez-zaher و Aharchaou، 1999؛ Ez-zaher، 2008؛ Kail و Fayol، 2000؛ Florin، 2016):
- أن الأطفال مزدوجي اللغة يمتلكون قدرات لسانية واعية أكثر تطورا من أنظارهم أحاديي اللغة وبالخصوص فيما يتعلق بمفهوم الكلمة.

- أن المواجهة المتزامنة للغتين اثنتين عادة ما تقود الطفل إلى مقارنات وتحاليل لسانية تغني تفكيره اللساني الواعي، وتزوده بدافعية ذاتية لتطوير لغته الأم والتمكن من أشكالها العليا والتفكير فيها كواحدة من السيرورات العليا.

إذن، نخلص مما تقدم إلى أنه إذا كانت الازدواجية اللغوية تشكل أحد العوامل الحاسمة لتكوين الوعي اللساني، فإن هذا الأخير الذي يساهم بدوره في إغناء هذه الازدواجية من خلال تسهيل اكتسابها، يشكل في آن واحد سببا ونتيجة للازدواجية اللغوية، ويلعب بالتالي دورا بارزا في اكتساب اللغة.

2 إجراءات وضوابط منهجية

الفرضيات

- يصبح الأطفال المغاربة عند فترة زمنية معينة على وعي بوجود أكثر من لغة واحدة، بحيث يقدمون نماذج بكلمات من هذه اللغات ومعانيها ومستعمليها، ويقبلون بإمكانية استعمال شخص ما لنظامين لغويين مختلفين أو أكثر.

- على أساس أن امتلاك الطفل لنظامين لغويين لا يعني بالضرورة قدرته على مَفهَمَةِ فوائد ومزايا واقعه اللغوي، فإننا نفترض أن الازدواجية اللغوية كممارسة لا تحمل معها الوعي الخاص بها.

- إن الازدواجية اللغوية عادة ما تساعد الطفل على وعي مبكر باللغة وعلى تحقيق تقدم على مستوى الوعي اللغوي إذا ما قورن بنظيره أحادي اللغة.

العينة

لقد شملت عملية التطبيق الميداني 96 طفلا تتراوح أعمارهم بين 4 و12 سنة، وينتمون إلى شرائح اجتماعية متوسطة متقاربة من حيث المستويات الاقتصادية والثقافية. فجميع آباء وأولياء هؤلاء يشتغلون بمهن تابعة لقطاعات الفلاحة والتجارة والتعليم والصحة والعدل والبريد، ويقطنون في أحياء شعبية ومتوسطة بمدينتي فاس و تاونات. وقد تم اختيارهم من ثلاث مؤسسات تعليمية: الأولى للتعليم الأولي والثانية والثالثة للابتدائي، وتم توزيعهم تبعا لمتغيرات السن والجنس والتمدرس إلى 8 مجموعات، كل واحدة منها تضم 12 عنصرا كما يوضح ذلك الجدول التالي:

جدول 1. توزيع عناصر العينة تبعا لمتغيرات التمدرس والسن والجنس

متغيرات التمدرس والسن والجنس		مؤسسة للتعليم الأولي		مؤسستان للتعليم الأساسي						المجموع
		الروض1 ر1	الروض2 ر2	القسم1 ق1	القسم2 ق2	القسم3 ق3	القسم4 ق4	القسم5 ق5	القسم6 ق6	
السن		4 سنوات	5 سنوات	6 سنوات	7 سنوات	8 سنوات	9 سنوات	10 سنوات	11 سنوات	
الجنس	ذكور	6	6	6	6	6	6	6	6	
	إناث	6	6	6	6	6	6	6	6	
عدد العناصر		12	12	12	12	12	12	12	12	96

الأداة

لقد تم التركيز في قياس تمثلات الأطفال المبحوثين وأحكامهم حول كينونة الازدواجية اللغوية وفائدتها على اختبار لفظي تتوزع أهم أسئلته وبنوده على المراحل الثلاث التالية:

مرحلة تمهيدية يطالب الباحث خلالها الطفل المبحوث بالإجابة على الأسئلة التالية:

1) حاول أن تذكر لي اللغة التي أتكلم معك بها الآن (المقصود العربية)؟
2) هل تعرف لغات أخرى؟ نعم: لا: ... ما هي تلك اللغات؟
3) هل تتقن الحديث باللغة أو باللغات المذكورة؟

4) هل تعرف أشخاصا يتكلمون لغة أو لغات أخرى غير العربية؟

مرحلة ثانية يواجه الباحث خلالها الطفل المبحوث بالأسئلة التالية:

1) هل يمكن لشخص ما أن يعرف الكلام بلغتين اثنتين؟
2) إذن يوجد أشخاص بإمكانهم الحديث بلغتين اثنتين؟
3) وهل يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يتكلموا بثلاث لغات؟ نعم: .... لا: ....
4) وهل يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يتكلموا بأربع لغات فأكثر؟ نعم: ... لا: ...

مرحلة ثالثة يطالب الباحث خلالها الطفل المبحوث بالإجابة على الأسئلة الآتية:

1) في رأيك، هل إتقان شخص ما الحديث بلغتين أو أكثر شيء مفيد؟
2) إذن إتقان الحديث بأكثر من لغة واحدة يفيد الإنسان في أشياء كثيرة، حاول أن تذكر أهم هذه الأشياء؟

أساليب تحليل البيانات

لقد تمثلت أهم هذه الأساليب في الإجراءات الإحصائية التالية:
- استخلاص الأعداد الإجمالية لأنواع التمثلات والأحكام (الإجابات) المقدمة من لدن المبحوثين بخصوص وجود الازدواجية اللغوية وكينونتها وفائدتها.
- استخدام النسب المئوية كإجراء إحصائي أساسي في تحليل إجابات المبحوثين تبعا لأنواعها ومستوياتها وفي التعبير عن طبيعة تمثلاتهم وأحكامهم حول الازدواجية اللغوية تبعا لمتغيري السن والتمدرس.
- اعتماد الأعداد الإجمالية لأداءات المبحوثين وتصرفاتهم تجاه الازدواجية اللغوية ونسبها المئوية في المقارنة بين مختلف المجموعات الفرعية المكونة لعينة البحث وذلك من أجل تحديد مظاهر بين تلك الأداءات والتصرفات.

3 النتائج

لقد تم التركيز في معالجة نتائج الدراسة المنجزة، تحليلا وتفسيرا ومناقشة، على مرحلتين أساسيتين همتا على التوالي (أحرشاو، 2007):
- معالجة البيانات المتعلقة بوجود الازدواجية اللغوية والوعي بكينونتها (الفرضية 1)؛
- معالجة البيانات المتعلقة بفائدة الازدواجية اللغوية والوعي بوظيفتها (الفرضيتان 2 و3).
ونقدم فيما يلي أهم النتائج الناجمة عن هاتين المرحلتين:

1.3 مظاهر الإقرار بوجود الازدواجية اللغوية والوعي بكينونتها

بالاستناد إلى معطيات وقيم الجدولين (2 و3) المواليين يمكن التأكيد على النتائج التالية:
- إن أغلبية المبحوثين (94 عنصرا) يقرون وبنسبة 98 % بوجود لغات أخرى غير العربية، ويقدمون بدرجات متفاوتة أمثلة عن أعدادها وأنواعها؛ بحيث إن 15 % من هؤلاء (14 عنصرا) يعترفون بأربع لغات، و23 % بثلاث لغات (22 عنصرا)، و30 % بلغتين (28 عنصرا) ثم 32 % بلغة واحدة غير العربية (30 عنصرا).
- الملاحظ أنه من ضمن العدد الإجمالي للمبحوثين القائلين بوجود لغات أخرى غير العربية، فقط 79 منهم يؤكدون وبنسبة 82 % إتقانهم الحديث على الأقل بإحدى تلك اللغات، ويتوزعون نسبيا وبشكل منتظم على الفئات العمرية المختلفة.
- يؤكد 74 من المبحوثين وبنسبة 77 % معرفتهم لأشخاص يتكلمون لغات أخرى غير العربية؛ بحيث إن هذه المعرفة وإن كانت تنحو على العموم نحو التزايد مع التقدم في السن، فهي تتجه إلى الانخفاض تبعا لأعداد هؤلاء الأشخاص.

جدول 2. توزيع أداءات المبحوثين تجاه كينونة الازدواجية اللغوية لدى أشخاص آخرين تبعا لأنواع الأسئلة ومستويات السن والتمدرس (ر = روض، ق = قسم، س = سنوات)

الأسئلة / السن والتمدرس		4 س ر 1	5 س ر 2	6 س ق 1	7 س ق 2	8 س ق 3	9 س ق 4	10 س ق 5	11 س ق 6	المجموع
التعرف على العربية	نعم	12	12	12	12	12	12	12	12	96 (100%)
	لا	0	0	0	0	0	0	0	0	0 (0%)
معرفة لغات أخرى	نعم	12	12	10	12	12	12	12	12	94 (98%)
	لا	0	0	2	0	0	0	0	0	2 (2%)
	4 لغات	0	0	1	2	4	3	2	2	14 (15%)
	3 لغات	0	2	2	4	3	3	5	3	22 (23%)
	لغتان	3	4	5	5	3	2	1	5	28 (29%)
	لغة واحدة	9	6	4	1	1	3	4	2	30 (33%)
إتقان الحديث باللغات المذكورة	نعم	12	12	10	2	10	11	11	11	79 (82%)
	لا	0	0	2	10	2	1	1	1	17 (18%)
	تقديم كلمتين	8	10	2	2	5	7	10	7	51 (53%)
	تقديم كلمة واحدة	4	2	0	0	4	4	1	3	18 (19%)
	بدون	0	0	10	10	3	1	1	2	27 (28%)
معرفة أشخاص يتكلمون لغات أخرى غير العربية	نعم	12	11	9	9	8	6	11	8	74 (77%)
	لا	0	1	3	3	4	6	11	8	74 (77%)
	4 أشخاص	4	4	0	0	0	0	1	0	9 (10%)
	3 أشخاص	4	2	0	0	0	0	0	1	9 (10%)
	شخصان	3	4	5	4	0	0	5	3	24 (25%)
	شخص واحد	1	1	4	5	8	6	5	4	34 (35%)
	لا أحد	0	1	3	3	4	6	1	4	22 (23%)

جدول 3. توزيع أداءات المبحوثين تجاه كينونة الازدواجية اللغوية لدى أشخاص آخرين تبعا لأنواع الأسئلة ومستويات السن والتمدرس (ر = روض، ق = قسم، س = سنوات)

الأسئلة / السن والتمدرس		4 س ر 1	5 س ر 2	6 س ق 1	7 س ق 2	8 س ق 3	9 س ق 4	10 س ق 5	11 س ق 6	المجموع
هل يمكن لشخص ما أن يعرف الكلام بلغتين	نعم	12	12	11	11	12	11	12	12	93 (97%)
	لا	0	0	1	1	0	1	0	0	3 (3%)
إذن يوجد أشخاص يعرفون الكلام بلغتين	نعم	12	12	11	11	12	11	12	12	93 (97%)
	لا	0	0	1	1	0	1	0	0	3 (3%)
هل يمكن لهؤلاء أن يتكلموا بثلاث لغات	نعم	11	11	8	6	8	5	12	11	72 (75%)
	لا	1	1	4	6	4	7	0	1	24 (25%)
هل يمكن لهؤلاء أن يتكلموا بأربع لغات	نعم	11	11	4	2	2	1	12	10	53 (55%)
	لا	1	1	8	10	10	11	0	2	43 (45%)

- إن أداءات المبحوثين التي تعبر عن قبولهم لإمكانية معرفة شخص ما الحديث بأكثر من لغة واحدة، وإن كانت تعرف نوعا من الانخفاض والتراجع ما بين سنوات السادسة والتاسعة، فهي تتميز على العموم وبالنسبة لمختلف اللغات المعتمدة بنوع من الارتفاع النسبي، وخاصة عند الفئة العمرية المتراوحة بين سنوات العاشرة والحادية عشرة. وفي المقابل إن أداءات المبحوثين الدالة على رفضهم لتلك الإمكانية، وإن كانت تعرف نوعا من الارتفاع ما بين سنوات السادسة والتاسعة، فهي تتميز بانخفاض واضح وبصورة خاصة عند الفئة العمرية المتراوحة بين سنوات العاشرة والحادية عشرة، كما يتبين ذلك من الجدول والأشكال الأربعة التالية:

جدول 4. توزيع أداءات المبحوثين حسب نماذج الإجابات وفئات الأعمار وعدد اللغات (+ = قبول، - = رفض)

	فئات السن / أنواع الأداءات وعدد اللغات	5-4	7-6	9-8	11-10	المجموع العام
+ قبول	ازدواجية	24 (%25)	22 (%23)	23 (%24)	24 (%25)	93 (% 97)
	ثلاثية	22 (%23)	14 (%15)	13 (%14)	23 (%24)	72 (%75)
	رباعية	22 (%23)	06 (%6)	03 (%3)	22 (%23)	53 (%55)
- رفض	ازدواجية	00 (%0)	02 (%2)	01 (%1)	00 (%0)	03 (%3)
	ثلاثية	02 (%2)	10 (%10)	11 (%11)	01 (%1)	24 (%25)
	رباعية	02 (%2)	18 (%19)	21 (%22)	02 (%2)	43 (%45)

شكل 1. النسب المئوية لأداءات المبحوثين تجاه قبول أو رفض إمكانية معرفة الكلام بلغتين اثنتين تبعا لفئات السن.

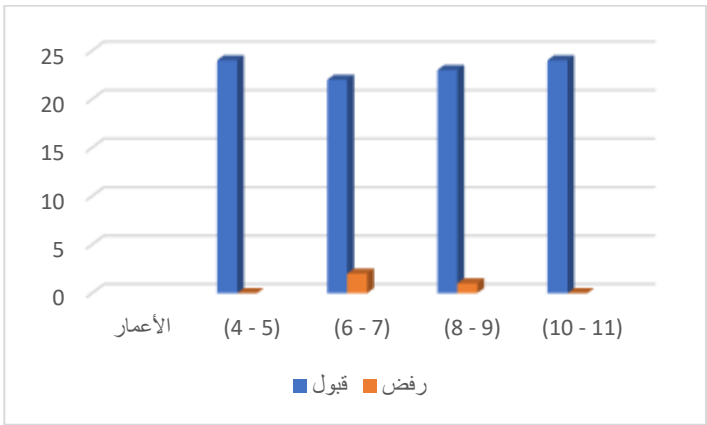

شكل 2. النسب المئوية لأداءات المبحوثين تجاه قبول أو رفض إمكانية معرفة الكلام بثلاث لغات تبعا لفئات السن

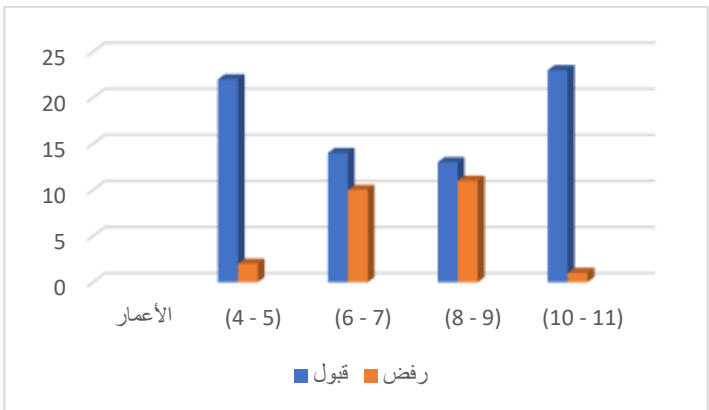

شكل 3. النسب المئوية العامة لأداءات المبحوثين تجاه قبول أو رفض إمكانية معرفة الكلام بأربع لغات تبعا لفئات السن

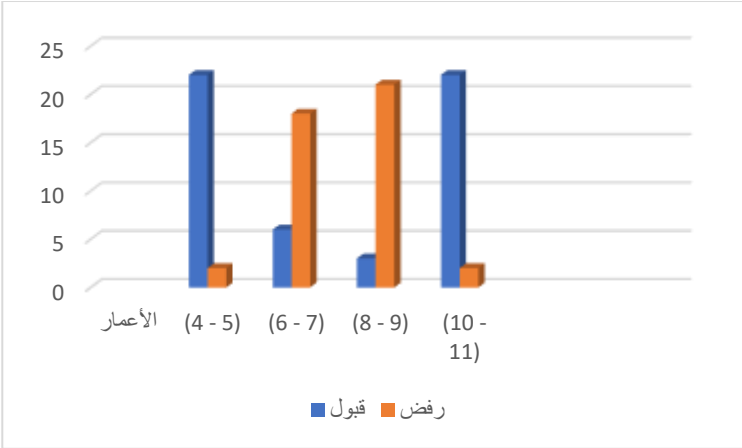

شكل 4. النسب المئوية العامة لأداءات المبحوثين تجاه قبول أو رفض إمكانية معرفة الكلام بلغتين أو ثلاث أو أربع

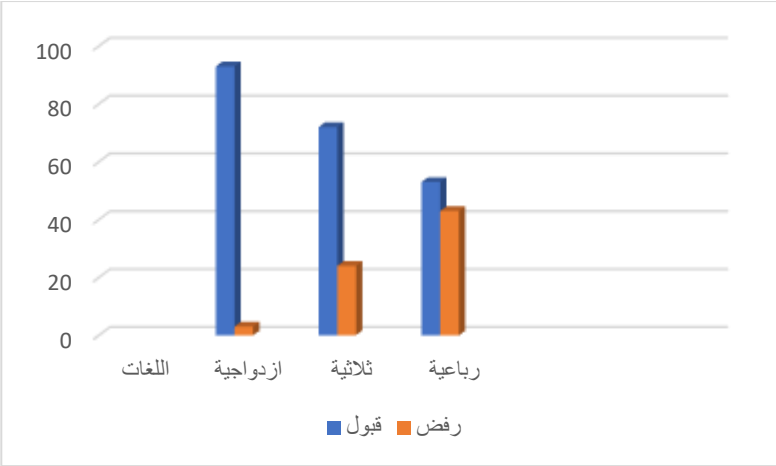

الملاحظ أن جميع المعطيات والنتائج السابقة تؤكد مصداقية فرضيتنا الأولى القائلة " يصبح الأطفال عند فترة زمنية معينة على وعي بوجود أكثر من لغة، بحيث يقدمون نماذج بكلمات من هذه اللغات ومعانيها ومستعمليها، ويقبلون بإمكانية استعمال شخص ما لنظامين لغويين مختلفين أو أكثر".

2.3 مظاهر الإقرار بوظيفة الازدواجية اللغوية والوعي بفائدتها

بداية لابد من الإشارة إلى أن معظم الأطفال المبحوثين (صغارا وكبارا، إناثا وذكورا، مزدوجي وأحاديي اللغة) الذين تمت مساءلتهم حول وظيفة الازدواجية اللغوية وفائدتها، يتوزعون تقريبا على جميع أنواع الأحكام والأداءات المقدمة بخصوص هذه الفائدة، كما تعبر عن ذلك قيم الجدول الموالي:

جدول 5. توزيع أداءات المبحوثين تبعا لأنواع التصرفات ومستويات السن والتمدرس (ر= روض، ق= قسم، س= سن)

الأسئلة	السن والتمدرس	4 س ر 1	5 س ر 2	6 س ق 1	7 س ق 2	8 س ق 3	9 س ق 4	10 س ق 5	11 س ق 6	المجموع
هل إتقان شخص ما الكلام	نعم	12	12	11	12	11	10	12	12	92 (96%)
بأكثر من لغة واحدة مفيد	لا	0	0	1	0	1	2	0	0	4 (4%)
إذن إتقان الحديث بأكثر من لغة يفيد الإنسان في أشياء كثيرة، اذكر أهم تلك الأشياء؟	بدون فائدة	0	1	2	0	1	2	0	0	6 (6%)
	الدراسة، التواصل، السفر، العمل ...	4	2	0	4	1	4	2	2	19 (20%)
	الدراسة، العمل ومشاهدة التلفزة	2	2	0	0	0	4	1	0	9 (9%)
	السفر، التواصل ومشاهدة التلفزة	2	0	0	0	2	1	0	1	6 (6%)
	التواصل، الدراسة ومشاهدة التلفزة	2	2	4	3	2	0	2	3	18 (19%)
	التواصل ومشاهدة التلفزة	1	4	3	2	6	1	7	4	28 (29%)
	الدراسة ومشاهدة التلفزة	1	1	3	3	0	0	0	2	10 (10%)

- إن أغلب المبحوثين، بما في ذلك صغار السن الذين لم يمارسوا الازدواجية اللغوية إلا بصورة طبيعية عفوية داخل أوساطهم الأسرية، أو في أقصى الحالات التعامل مع بعض الألفاظ والتعابير الأجنبية ضمن أنشطة مؤسسات التربية ماقبل المدرسية، يقرون بفائدة هذه الازدواجية ويقدمون أحكاما وتصورات بفحوى هذه الفائدة على شكل أنشطة متنوعة. وهذا ما يدحض فريضتنا الثانية القائلة "إن امتلاك الطفل لنظامين لغويين لا يعني بالضرورة قدرته على مَفهَمَةِ فوائد ومزايا واقعه اللغوي". وهذه نتيجة لا تختلف كثيرا عما توصلت إليه بعض الدراسات الأخرى وفي مقدمتها تجارب وأبحاث كايل Kail وفايول Fayol (2000)، ثم فلورين Florin (2016).

- الحقيقة أن إقرارا من هذا القبيل يمثل البرهان الواضح على أن الازدواجية اللغوية وظاهرة الوعي اللغوي توجدان في علاقة تفاعلية منذ سن مبكر، الأمر الذي يعني أن معاملة الأطفال مزدوجي وأحاديي اللغة كما لو كانوا يتساوون على المستويين النمائي واللساني، يعني ضمنيا الاستناد إلى مقاربة جزئية تقصي مسبقا دور التجارب والخبرات والمعارف السابقة في اكتساب اللغة ونموها، وتبدو عاجزة عن التشخيص الدقيق لسيرورة نموها. وهذه نتيجة تؤكد مصداقية فرضيتنا الثالثة التي تنص على " أن الازدواجية اللغوية عادة ما تساعد الطفل على وعي مبكر باللغة وعلى تحقيق تقدم على مستوى الوعي اللغوي إذا ما قورن بنظيره أحادي اللغة "، وتتماشى مع نتائج مجموعة من الأبحاث والتجارب - على قلتها - وفي مقدمتها دراسات بيرتود- باباندروبولو Berthoud – Papandropoulou (1991) بهذا الخصوص.

- إن مختلف أداءات المبحوثين وأحكامهم حول سؤالنا لهم " في أي شيء يفيد إتقان شخص ما الحديث بأكثر من لغة واحدة؟ " توضح هذا الأمر. فأغلب هؤلاء تمكنوا من تخيل وظيفة معينة للازدواجية:

1- إن ما يقارب ثلث المبحوثين (29%) يحددون فائدة الازدواجية اللغوية في نشاطين اثنين: نشاط مشاهدة التلفزة لمتابعة الرسوم المتحركة لدى الصغار والأخبار لدى الكبار، ثم نشاط التواصل بمظاهره المتنوعة.

2. يحدد (20 %) من المبحوثين تلك الفائدة في مجموعة من الأنشطة وفي مقدمتها: الدراسة وكل ما يصاحبها من تعلم المعارف واللغات، ثم التواصل وكل ما يواكبه من حوار وتفاهم مع أناس غرباء أحيانا.3. إن ما يقارب ربع المبحوثين (24%) يجملون تلك الفائدة في أنشطة وممارسات تتوزع على مشاهدة التلفزة وتعلم اللغات والتحاور بلغات أخرى. فإذا كان صغار السن من هؤلاء يركزون في أداءاتهم على ذواتهم تأكيدا لمستوى وعيهم الذاتي بأهمية الازدواجية اللغوية في علاقتها بتلك الأنشطة، فإن كبار السن يركزون على الآخر وعلى الإنسان عامة في علاقته بتلك الازدواجية وبالأنشطة المرتبطة بها.

4 خلاصات

من أهم الخلاصات التي يمكن التأكيد عليها في ختام هذه المقالة ما يلي:

- إقرار أغلبية الأطفال، بمن فيهم صغار السن الذين لم يمارسوا الازدواجية اللغوية إلا بصورة عفوية طبيعية، بوجود لغات أخرى غير العربية، وإدلائهم بدرجات متفاوتة نسبيا بأمثلة عن أعدادها وأنواعها وبعض كلماتها ومستعمليها وعن أهم الأنشطة والممارسات التي تعبر عن وظائفها وفوائدها.

- تتدرج سيرورة نمو وعي تمثلات الأطفال وأحكامهم تجاه الازدواجية اللغوية من الاعتراف العفوي الساذج من لدن صغارهم سنا (4 -7 سنوات) بوجود لغات أخرى وتقديم أمثلة حول أعدادها وأنواعها وكلماتها ومستعمليها وفوائدها والتي قاربت في كثير من الحالات الأداءات النموذجية المطلوبة، إلى نوع من الاعتراف المتذبذب بوجود تلك اللغات من لدن متوسطي السن (8-9 سنوات) والمحكوم بتراجع واضح في أداءاتهم الدالة بالخصوص على أمثلة من كلماتها ومستعمليها، إلى التأكيد شبه الكامل من طرف كبار السن (10-11 سنة) على المقومات المختلفة لتلك اللغات مع تقديم أمثلة مدعمة بالتبريرات الكافية عن مظاهر وجودها واستعمالها ومزاياها.

- إجماع أغلبية الأطفال على موقف شبه موحد تجاه كينونة الازدواجية اللغوية وفائدتها بغض النظر عن صغر أو كبر سنهم؛ إذ أنه ورغم تواجد العدد الكبير ممن يرفضون منهم هذه الازدواجية عند فئات السن الممتدة من السادسة إلى التاسعة، فالمؤكد أن معظم هؤلاء يتخذون من أنشطة التواصل والدراسة والعمل والسفر إلى الخارج ومشاهدة التلفزيون، العوامل الأساسية للتعبير عن تلك الكينونة وتلك الفائدة.

- الراجح أن ممارسة الازدواجية اللغوية في المغرب لا تبدأ بالضرورة في المدرسة على شكل تعليم منظم للغة ثانية (أجنبية في الغالب)، بل إنها تتمظهر قبل ذلك في صورة أنشطة وتجارب ومعارف مبكرة يعايشها الطفل ويتعامل معها على مستوى التأمل والتقييم والحكم. فتواجد هذا الأخير ونشأته في وسط أسري يمتلك من المقومات الثقافية واللغوية والتربوية ما يؤهله للسماح باكتساب أكثر من لغة واحدة، يشكلان العامل الذي يؤثر إيجابيا في لغاته المكتسبة (بما في ذلك لغته الأم) عبر تمكينه من الوعي ببعض مكوناتها وأشكالها وفوائدها.

- يمثل وعي الطفل المبكر بكثير من الأنشطة التداولية والصيغ اللسانية الدالة على كينونة الازدواجية اللغوية وفائدتها، الدليل الواضح على دور هذه الأخيرة الإيجابي في تكوُّن هذا الوعي والرقي بصاحبه إلى مستوى التفوق والتميز على نظيره أحادي اللغة في التعامل الواعي مع اللغات وبنياتها ووظائفها المختلفة. فإذا كانت الازدواجية اللغوية تشكل بهذا المعنى أحد العوامل الملائمة لتكوين الوعي اللغوي وتطويره، فإن هذا الأخير يساهم بدوره في إغناء هذه الازدواجية وتنميتها من خلال تسهيل سيرورة اكتسابها، وإدراك مختلف وظائفها، ثم التمكن من شتى فوائدها.

المراجع

- الغالي، أحرشاو (2014). بناء مقياس لتقويم الأداء في القراءة بالعربية لدى الطفل المغربي. الكويت: منشورات الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية.
- الغالي، أحرشاو (2007). مظاهر نمو الوعي بالازدواجية اللغوية عند الطفل المغربي. الكويت: منشورات الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية.
- الغالي، أحرشاو (1999). سيرورة الاكتساب بين النمو والتعلم، مجلة الطفولة العربية، 1، 75-89.
- الغالي، أحرشاو؛ أحمد، الزاهير (2000). التمدرس واكتساب المعارف عند الطفل، مجلة العلوم التربوية والنفسية، 1، 1، 16-45.
- Tiberghien, G. (1999). La psychologie cognitive suivra-t-elle aux sciences
- Bialistok, E. (1986). Factor in the growth of linguistic awareness, child development, 57,498-510.
- Ez-zaher, A & Aharchaou, E. (1999). Représentations métalinguistiques et développement du langage chez l'enfant, Cognition, 2/3, 1-11.

- Ez-zaher, A. (2008). Conscience linguistique et apprentissage de la lecture. Fes: Imp. El Oufouk.
- Fayol, M & Monteil, J.C. (1994). Stratégies d'apprentissage/Apprentissage des stratégies, Revue Française de pédagogie, 106, 91-110.
- Florin, A. (2016). Le développement du langage. Dunod.
- Fodor, J. (1983). Modularity of mind, Cambridge Massachuset: Mit press.
- lanco-worrall, A.D. (1972). Bilingualism and cognitive development, Child development, 43, 1390-1400.
- Berthoud-papandropoulou, I. (1991). Jugements métalinguistiques portés pae des enfants de quatre à neuf ans sur le bilinguisme et son utilité, Archives de psychologie, 59, 225-239.
- Léopold, W.F. (1949). Speech development of bilingual child, Eranston LIII: North Western University.
- Kail, M & Fayol, M. (2000). L'acquisition du langage. Vol 1 et 2. Paris: PUF.
- Melot, A.M. (1990). Contrôle des conduites de mémorisation et métacogniton, Bulletin de psychologie, 399, 138-146.
- Perruchet, P. (1989). L'apprentissage sans conscience. In P. PERRUCHET (ed). Les automatismes cognitifs, Liège: Pierre Mardaga.
- Tunmer, W & Myhill, M. (1984). Metalinguistic awareness and bilingualism, In W. TUNMER; C. PRATT & M. HERRIMAN (eds). Metalinguistic awareness in children, Berlin: Springer-verlag, 17-43.
- Vygotsky, L.S. (1962). Thought and language, Cambridge, MA: MIT Press.